القصص

قصة مصرية

صراع مع الشيطان !

للأستاذ دريني خشبه

« الحوار في الأصل باللهجة المصرية ... »

انبسطت حقول الأرز حول القرية الساكنة الشاحبة ، وهدأ الليل الفضي إلا من ضفادع تنق ، ونسمة ترف فتحرك أغصان (الجميزة) الكبيرة التي ترسل فروعها فوق شاطئ النيل من جهة ، وفوق (الدوّار) الواسع في شرق القرية من جهة أخرى ؛ وسفر البدر الجميل الساحر ، ففضض عباب النيل ، واختلط لجينه بمائه النجاشي ، وتدفق فوق (اللسان) الحجري الأبيض الذي أقاموه ليفل من غربه فأحدث خريراً موسيقياً بديعاً

وجلس (حماده) بن العمدة في متعزل عند ضفة النهر مما يلي الماء ينتظر فاطمة ... الفلاحة الصغيرة الجميلة ، التي رآها ابن العمدة حاسرة عن ساقيها وهي تنق الأرز مع الفلاحات الأخريات ، فجن بها جنوناً ، وافتتن بها افتتانا

لقد رشقت قلبه بنظرة ما كرة حين رأته يكاد يأكلها بعينيه الجائعتين ، وحين أحسّت أنها حلت من فؤاده منزلة لا تعدلها منزلة فتاة أخرى ، حتى ولا زوجته الثنية التي بنى بها منذ شهر وبعض شهر ، فكان لمرسها صدى أي صدى في كل القرى المجاورة ، لا سيما وقد غنى فيه المطرب المشهور الشيخ عبد الآله .. والعياذ بالله ...

ولسيقان الفلاحات جمالها الرائع ، وهي دائماً محاطة بظل من الفتنة ، يزيده الخلخال النائم على العقبين ، والملاءة السوداء القصيرة ، رونقاً ورواء . وكان لفاطمة جيد بارز وقوام ممشوق ، وكان لها عنق طويل أبيض ، يزينه عقد كبير من الكارم الأصفر ، ينتهي بحلية من النحاس المصفح بالذهب فتقر على الصدر ، عند انفراج الثديين ، فتزيد اهتزازات النهد خفقاناً في قلب حماده ... حماده المسكين ... الذي ربط حياته أبوه بحياة هذه الزوجة الثنية التي لم يحبها ، والتي ألقاها أبوه على كاهله حملا ثقيلا من الهم والشقاء ... والذهب !! والذهب لا يصلح علاجا للهم والشقاء مهما كان كثيرا طائلا

لقد كان حماده فتى ذكيا من فتيان الأزهر ، فقطعه أبوه عن العلم ليزوجه هذه الزيجة الثنية قبل أن تفلت من يده ، لأن أبناء العمد في القرى المجاورة كانوا قد بدأوا يخطبونها إلى والدها ، وقد غادر حماده الأزهر وفي قلبه حسرة ، ولكنه خضع لمشيئة والده بعد أن خدعه بالأماني والآمال ، وبعد أن زين له مستقبلاً مليئاً بالحور العين والدعة ، وبعد أن بغض اليه مستقبل التحصيل الأزهري الشاق بتكرار هذه العبارة المنكرة : « الأزهر ما مستقبله ؟ علومه ما قيمتها ؟ أتريد أن تفقد بصرك وصحتك لتكون مأذوناً شرعياً آخر الأمر مثل الشيخ عرفه ؟ »

وتزوج حماده من نظيرة ، فلما كانت ليلة العرس ، ودخل إلى عروسه ، دارت به الأرض ، وشعر كأن هواء الغرفة يخنقه ، وانطفأت في عينيه الشموع الكثيرة الموقدة في (الصواني) النحاسية تحملها القرويات الصغيرات ، وخيل اليه كأن جهنم بكل ما فيها من سعير تزفر من لهب هذه الشموع فتكاد تحرقه

لقد نظر الى عروسه فطاشت أحلامه ؛ وذهبت أمانيه في الجمال الذي كان ينشده أباديد . . . حماده ، الذي كان يعبد الله في الجمال يبتليه أبوه بهذه المرأة التي فقدت نصف أذنها اليمنى ، وأتلف الجدري أنفها ، وتعا لها في كل يد إصبع سادس ما ينفك يرقص كأنه الجُعَل الصغير في عنق الدابة ، ثم هي قصيرة مكلثمة

شائهة ، وقد زادتها الأساور والقلائد والقرط والخواتم وأرطال الذهب قبحاً على قبحها

وتذرع حمادة بالصبر ، ولم يشأ أن يجرح عزة هذه العروس التاعسة التى ليس ذنبها ألا تكون جميلة ، فهى لم تخلق من نفسها شيئاً ، بل هو قد رحمها وأشفق عليها رثاء لها ؛ وصرف أهله وأهلها ، وغلّق الباب ، وخلا اليها ، ثم راح يكلمها كلام الذاهل عن نفسه ، المستسلم لقضاء الله . . . ولكنها لم ترد عليه ، بل تركت دمعة غليظة تنحدر على خدها فجأة ، ثم استخرطت بعد ذلك فى البكاء !

— « ما الذى يبكيك يا ... »

— « لا شىء ! فقط ، كنت ولا زلت أعتقد أننى لم أكن أصلح لك كزوجة ، ولكنهم أرغمونى كما أرغموك ياحمادة ، فليس هذا الذنب ذنبى ! »

— « ولكنك مخطئة ، فأنت امرأة صالحة وغنية ! ! »

— « وهذا هو موضع أسَاىَ وسبب بلواى . . . إسمع يا حمادة ، لك مطلق الحرية فى أن تُسرّحنى من الغد وأن تكون حراً بعد ذلك ، وسأرد لك صداقك ، بل سأرده مضاعفاً إن شئت . فان أردت أن تستبقينى لديك فسأعيش معك عذراء الى الأبد ، ولن أنغص عليك بخلق الشائه متاع قلبك ونعيم نفسك ولذة شبابك ونضرة صباك . فهذه أشياء لك أن تنعم بها ، ومن الظلم أن أفرض عليك هذا القبح الذى رزأتنى به المقادير ، فأقف به بينك وبين لذات الحياة وهناءاتها . . . أرسلنى أشكر لك ، أو استبقنى أحمدك . فان كانت الأولى تكن قد خلصت من خطأ أوقعك فيه غيرك ، ولم تتكلف فى سبيل الخلاص منه قليلاً ولا كثيراً ؛ وإن تكن الثانية ، فثق أننى سأعيش فى كنفك كما تعيش الراهبة فى دير ساكن هادئ على هامش صحراء ، يقنعها أنــ قد انقطعت عن بهارج الحياة وزخارفها وآمنت ببطلان لذاتها . . . آه ! يا إلهى ! لم لا تتخذ نحن المسلمين مثل هــذه الديور ؟ ! . . . »

— « كفى يا نظيرة كفى ! بل تعيشين معى على أحسن ماتعيش فتاة تفرح برجلها ! . . .

* * *

وعاشت نظيرة فى كنفه ، عذراء كما عاهدته ، وكان هو يحنو عليهــا ويعطف كل العطف ، وكان يسامرها ويلاطفها ويهش لهــا ويبش ، حتى كلفه أبوه مراقبة الفلاحات إذ ينقين الأرز من الحشائش الغريبة وسائر الطفيليات ، فرأى فاطمة ... فاطمة الشابة الجميلة التى تتأرج كالزهر بشذاها وعَرْفها ، وتتبرج كالدنيا بفتنتها وظرفها ... لقد بسمت له عن فم رقيق ، وغمزت قلبه بعين خبيثة ماكرة فتفجّرت فيه أحاسيسه المكبوتة ، وأطلقت عواطفه الحبيسة ، وأحيت فى صميمه مطالب الشباب فثارت كالبركان ، وصعد الدم الحار يغلى فى رأسه ، وتدفقت فى أعصابه قوى هائلة من الطبيعة البشرية بشّضت إليه هذا الزهد المصطنع الذى فرضته عليه نظيرة ، وقبحت إليه تلك الرهبانية التى عرفها وهو فى ميعة الصبى وشرخ الشباب منذ الليلة الأولى التى رأى فيها زوجته الشائهة المسكينة

وكان يرسل من يشترى له بلحاً أحمر يأكله بعد الغداء ، وكان يوزع على الفلاحات بيده من ذلك البلح إذا فرغن من غدائهن ؛ وكان نصيب فاطمة من هذا البلح الأحمر كبيراً منتقى ، أثار فى قلوب أترابها غيرة شديدة وجعلهن يهمسن بكلام كثير

ومرت الأيام ... وتأكد الحب بين حمادة وفاطمة ، وإنه لينتظرها الليلة فى هذا المنزل الفريد عند ضفة النيل مما يلى الماء ، قريباً من تلك الجميزة الكبيرة الوارفة ، وإنها لتتأخر عن موعدها فيقلق حمادة ويضطرب ، ويسمج فى عينيه كل شىء من الطبيعة الساحرة التى حوله ، حتى بدرها الذى كان للحظة قصيرة يتلو عليه مزامير الحب ، يخيل اليه أنه مظلم قاتم ، أو أنه جذوة من الشك السادر الحزين تجوب أقطار السموات

« لم لم تأت يا ترى ؟ آه اللعينة ! أخشى أن يكون فى الطريق الى قلبها فتى سواى ... سأعرف ... لابد ... لابد أن أعرف ... سأسألها الليلة ، لابد أن ألقاها مهما كانت ظروفها ، لن تستطيع أن تنكر ، ماذا تقول ؟ هيه ! »

وصعد إلى الجميزة لأنه لم يحتمل مرور الزمن وهو يترقب وينتظر ، وجمع قليلا من الجميز الفلكى الأحمر الكبير ، وهبط ليلقى فاطمة تنتظره ، فقذف بالثمر الناضج على العشب ، وفتح ذراعيه وضم الى صدره فاطمة ، واحتملها كاللعبة ، وغمر شطر

المنعزل الهادئ القريب من الماء ... ثم جلسا يتناجيان ...

— « لماذا أبطأتِ عليّ يا بطة ؟ »

— « لاشيء ، غير أنني كان يخيل الىّ أن الطريق كلها عيون ترقب جميع حركاتى ، وكنت على غير عادتى أشعر بقلبى يخفق خفقاناً شديداً ... حمادة أليس قلبك يخفق مثل قلبى ؟ »

— « يخفق ؟ يخفق فقط ؟ إنه كاد ينخلع هذه الليلة يا طمطم لأنك أبطأت كثيراً ... »

— « حمادة ، أنا خائفة ... »

— « خائفة ؟ من ماذا ياحلوة ؟ هل هنا عفاريت ؟ »

— « لا ، ليس من العفاريت ، فالليلة مقمرة ... الحمد لله ... »

— « إذن مم تخافين ؟ هل تعقبك أحد إلى هنا ؟ »

— « لا ... لا أظن ، ولكن ... »

— « فاطمة ... كفى ! يجب ألا تفكرى فى شيء مادمت معى ... تعالى يا فاطمة ، هاتى فمك الحرى الجميل ، الله ! ما أشهاه يا فاطمة ! قبلة ثانية ، لا والله ، لا بد ، لا بد ، فاطمة ، أنت ترفضين ؟ آه ! يا قلبى ! »

— « حمادة ! أنا خائفة قلت لك ! »

— « خائفة من أى شيء يا طمطم ؟ »

— « من ... من ... منك ... أنا خائفة منك ياحمادة ؟! »

— « منى ؟ منى أنا ؟ أنت خائفة منى ؟ »

— « نعم أنا خائفة منك ... خائفة جداً ! »

— « لماذا ؟ هل أنا عفريت ؟ القمر طالع والحمد لله ؟... »

— « حرام عليك ياحمادة ! »

— « حرام على ماذا ؟ »

— « شيء ... فقط ... زوجتك نظيرة ... إنها لو علمت تقتلنى ! »

— « امرأتى نظيرة ! العياذ بالله ؟ نظيرة ليست امرأتى يا فاطمة ! »

— « ليست امرأتك ؟ امرأة من إذن ؟ »

— « أجل ، نظيرة ليست امرأتى ! إنها فريسة أبى »

— « فريسة أبيك كيف ياحمادة ! »

— « فريسة أبى ، لأنه تجاهل قلبى وشبابى حين اشتراهالى »

— « اشتراها لك ؟ وهل المرائس تشترى ! ماذا تقول يا حمادة ؟ »

— « اشتراها ، أجل اشتراها ، إشتراها لأنها تملك خمسين فداناً ومنزلين وعندها نقود كثيرة ، ولكنها ، كامرأة ... لا تسوى منك قلامة ظفر يا فاطمة ! »

— « له ؟ أليست جميلة ؟ »

— « جميلة ؟ كلا ! انها شوهاء ! أكل الجدرى نصف أنفها وذهب الجزار بنصف أذنها ، ونبت النصفان ، نصف الأنف ونصف الأذن ، فى يديها ، فكانا فى كلٍّ إصبعاً سادساً ؟ ... »

— « ولكنك تخونها الآن ياحمادة ؟ أليس كذلك ؟ »

— « أخونها ، لقد صرحت لى ليلة الدخلة أنها لن تقف فى سبيل لذاتى ! »

— « ورضيت أن تعاشرها على هذا الشرط ؟ »

— « ... ؟ ... »

— « وأنا أرفض أن أكون مطية للذتك ! هذا كثير ! دعنى ! لا بد أن أعود أدراجى ! »

— « إلى أين ؟ »

— « ليس هذا شأنك ! »

— « آه ! اعترفى إذن ! الى عشيقك الثانى ! الذى أخرك هذه الليلة ! »

— « حمادة ؟ ماذا تقول ؟ أنت جبان ! »

— « جبان ؟ لا ... أنا لست جباناً ... أفلذلك تخافين منى ؟ ولكن لا ، لن يتمتع بك أحد غيرى ، أنت لى وحدى ، أفهمتِ ؟ أنتِ لى وحدى ! فاطمة ! انزعى هذا الثوب ... وذاك النصيف ! »

— « ياحمادة عيب ! »

— « عيب ؟ لا ، ليس فى ذلك عيب مطلقاً ! قد عرفتك الليلة فقط ، ولا بد أن أنالك رضيت أو لم ترضى ! ستكونين جميلة جداً وأنت عارية ! »

— « حمادة ! ان لم ترجع (فسأصوّت)

— « صوّتى ماشئت ! لا تفضحين إلا نفسك ! أنا رجل على كل حال ، ماذا يهمنى اذا اجتمع الناس ؟ ...

وانقض عليها المسكين ينزع عنها ثيابها ثوباً ثوباً .

وما استعصى عليه منها جبذه فمزقه ، حتى وقفت أمامه فاطمة دمية من المرمر الناصع ... تمثالاً ! تمثالاً فاتناً خلاباً ... ولكنه لا يتحرك ! لقـد ذهلت فاطمة عن نفسها فلم تدر ماذا تصنع ؟ أتصوّت كما أنذرته ؟ ولكنه قال لها إنها إن فعلت فلا تفضح إلا نفسها ... جبنت فاطمة فلم تصوت إذن ... ووقفت مشدوهة حائرة ، وصب القمر على بدنها الجميل المذعور أضواءه الفضية فزادها فتنة ؛ وهبت نسمات عليلة فداعبت شعرها الأسود فانتثرت على جيـدها وظهرها وحول عنقها ... وجاء دور الشيطان ... نوبة إبليس الأكبر ! فراح يصقل فخذيها ويلون خديها ويثقل ردفها وينفخ ثدييها ... وانطلق يوسوس في قلب حمادة « هلم ! اهجم عليها ! لماذا تنتظر ! هاهي ذي ! إنها لك الساعة وإذا فارقتك فلن تراها بعيـد ! أنت شاب ، وللشباب مآربه ! زوجتك الشائهة ! لا تخش شيئاً ! اقطف الثمرة قبل أن يلتقطها عشيق غيرك ! الجدري ! فاطمة جميلة ساحرة ؟ الأصبع السادس ! هاك متاع الدنيا ! ... »

وأزله الشيطان فانقض على الفتاة البائسة ... وطرحها على (الدريس) اليابس وأعواد البردي المنداة ... ووقف برهة يملأ ناظريه الفاسقين من جمالها المظلوم ... وقبل أن يتقدم فيخطو الخطوة الأخيرة ، وحين أيقنت فاطمة أنه موشـك أن يعتدي عليها ... اغرورقت عيناها بدموع غليظة ، وقالت له :

— « حماده ! والقرآن يا حماده ! القرآن الذي حفظتـه في الأزهر ؟ نسيته ؟ نسيته يا حماده ... بهذه السرعة ؟ »

— « القرآن ؟ القرآن ! ! هه ! ... »

وجمد الفتى في مكانه لحظة ... ثم ولى الفتاة ظهره ، ونظر الى السماء وقال :

— « ربي ! غفرانك اللهم ... فاطمة ! »

— « ... ؟ ... »

— « انهضي فالبسي ثيابك ! »

* * *

ونهضت فاطمة وهي لا تصدق ، فارتدت ملابسها ، الممزق منها وغير الممزق ، ثم قالت لحمادة بصوت خاشع متهدج :

— « حمادة ! أنت ... مالك يا حمادة »

ولكن الفتى ازورّ عنها وقال :

— « لا شيء يا فاطمة ... عودي أدراجك الى منزل أبيك ، وسأحرسك من بعيد ... »

وانطلقت الفتـاة في الطريق القفر الموحش ، وانطلق في إثرها حمادة ، وهو لا يكاد ينظر اليها ...

* * *

— « نظيرة ! هل يحزنك أن أتزوج ؟ »

— « يحزنني ؟ بل يسرني أن تمتع شبابك كما يحلو لك ! »

— « إذن فقد عقدت على فتاة فلاحة ... فقيرة في غاية الفقر وستكون خادمة لك إذا شئت ! »

— « من ؟ من هي يا حمادة ؟ من هي بالله عليك ! »

— « فاطمة بنت عم عبد القادر العتال ! »

— « مبارك ... مبارك يا حماده »

* * *

ولم تحتمل نظيرة الموسرة هـذه الرهبانية التي فرضتها على نفسها في منزل العمدة الذي خدع ابنه فرجت حمادة في طلاقها ... وذهبت بكل ما عليها من ذهب الى منزلهـا الرحب الفسيح في إحدى القرى المجاورة للمنصورة !

دريني خشبة

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألماني

« الطبعة الرابعة »

ترجمها أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشاً